الفصل الثالث

دور الفقه الإسلامى فى العمارة السكنية والخدمية

obeikandl.com

obeikandl.com

أثر مبدآ حيازة الضرر[1] والخصوصية[2] على العمارة السكنية فى مدينتى القاهرة ورشيد، فقد صاغا بوضوح العمارة السكنية ونرى هذا التأثير فى واجهات المنازل ، وفى علاقة المنازل بعضها ببعض من خلال تجاورها ، وفى توزيع وحدات المنازل من الداخل ، والعلاقة بين هذه الوحدات .

الواجهات

كان لمبدا حيازة الضرر أثر بالغ على تكوين واجهات المنازل فى مدينتى رشيد والقاهرة ، ونلمح هذا بوضوح من خلال واجهات منازل رشيد ، فمبدأ حيازة الضرر الذى يسبق به الجار جاره ، جعل صاحب منزل الجمل يفتح نافذة أسفل خرج منزل محارم الأسبق تاريخيا ، وهذا يعنى أن منزل الجمل أحدث تاريخيا ، وأن منشئه لم يستطع أن يفتح نوافذ جانبية فى منزل الجمل ، إلا أسفل خرج منزل محارم . وبذا نستطيع من خلال مثل هذا النوع من فتحات المنازل تأريخ المنازل الأثرية المتجاورة وتحديد أيها أسبق تاريخيا ، وقد أرخ أحد الباحثين منزل محارم بأنه يعود للقرن ١٢هـ١٨م ، وأرخ منزل الجمل بأنه يعود للقرن ١٢هـ / ١٨م[3] ، ولكنه لم يحدد أيهما أسبق تاريخيا ، وبناء على الاستدلال السابق نستطيع أن نستنتج أن منزل محارم أقدم تاريخيا من منزل الجمل . (صورة رقم ١٦) ، وكذلك لم يستطع منشئ منزل الجمل أن يبرز بخرجه عن سمت خرج منزل محارم ، حتى لايسد النوافذ الشرقية للجزء البارز من واجهة منزل محارم . ويبدو أن هذه الظاهرة شاعت فى رشيد إذ نرى بمنزل على الفطايرى برشيد ، لجؤ المنزل المجاور لنفس الطريقة لفتح نافذة أسفل خرج منزل الفطايرى وهو مايعنى أن منزل الفطايرى المؤرخ بعام ١٠٣٠هـ / ١٦٢٠م ، نستطيع من خلاله تأريخ المنزل المجاور له بتاريخ لاحق[4] .

بينما يرتد المنزل الأمامى فى الصورة رقم٧ بالكراسة رقم ١٦ بكراسات لجنة الآثار العربية عن المنزل المجاور له ، مما يعنى أن المنزل الأمامى أحدث تاريخيا .

وقد يحوز الضرر أحد المنازل ، فيفتح نوافذ فى جانبى خرج المنزل على الشارع، ولايستطيع جاره عند بنائه سد هذه النوافذ فيرتد فى جزء من بروز واجهته

---

(١) انظر : ص ٢٥ .

(٢) انظر : ص ١٨ .

(٣) محمود درويش ، مرجع سابق ، ص١٢٦، ١٢٧ .

(٤) هذه الصورة بالكراسة رقم ١٦ من كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ، وذلك فى التقرير الذى كتبه هرتس بك عن آثار رشيد سنة ١٨٩٩م .

ليبرز مرة ثانية فى أحد الطوابق العليا عندما يكون قد تلافى ضرر جاره ، وهذا مـانراه بوضوح فى منزل رمضان برشيد الذى تلافى مهندسه سد النوافذ الغربية لخـرج مـنزل محارم ، وبالتالى اضطر إلى الارتداد فى جزء من خرج الواجهة إلى ارتفاع الطابق الأول علوى ، متفاديا بذلك كشف نوافذ الجار ، وقد عـاد للـبروز مـرة أخـرى فـى الطـابق الثانى ، حيث استخدم فى نوافذه الخشب الخرط الميمونى الضيق ، الذى لايسمح لأى من الطرفين كشف الآخر بوضوح (شكل رقم ١٦) ، وبذلك يكون منزل محارم أسبق تاريخيا من الناحية الإنشـائية ، مـن مـنزل رمضـان (صـورة رقـم ١٧) وتكـررت هـذه الظاهرة مرة أخرى فى منازل رشيد ، فنراها بوضوح فى مـنزل عثمـان أغـا الأمصيلـى الذى يرجع للقرن ١٣هـ /١٩م والذى يجاوره منزل حسيبه غزال الـذى يرجـع للقـرن ١٢هـ /١٨م . حيث اضطر معمار منزل الأمصيلى إلى الارتداد بخرج مـنزل الأمصيلـى بالطابق الأول علوى ، حتى يتفادى هذه المرة سد النوافذ الغربية لخـرج مـنزل حسـيبه غزال ، وكذلك لعدم كشف من بالطابق الأول علوى ، وقد عاد بالـبروز مـرة أخـرى بالطابق الثانى ، حيث لاتوجد نوافذ لمنزل حسيبة غزال بخـرج هـذا الطـابق . (صـورة رقم ١٨) وأخذت هذه الظاهرة شكلا آخـر ملفتـا للنظـر فـى مـنزل ثـابت ، إذ ارتـد المعمار بخرج الواجهة إلى الطابق الثالث علوى ، وهـو مـايعنى أن جـاره الـذى لم يعـد موجودا حاليا ، قد سبقه تاريخيا و لم يسـتطع معمـار مـنزل ثـابت الـبروز بالواجهـة إلى آخر الطابق الأخير من المنزل .

وقد أعطت هذه الارتدادات تنغيما رائعا لتشيكل واجهات المنازل فى رشيد قل أن نجده فى منطقة أخرى ، وقد حلاها المعمار بكرانيـش وكـرادى حاملـة للـبروز فـى الطوابق العليا ، يزخرف أحيانا باطن بروز الخرج فى الطـابق التـالى بالأطبـاق النجميـة كما هو الحال فى منزل الأمصيلى .

وفى القاهرة نرى تأثيرا آخرا واضحـا لمبـدا حيـازة الضـرر ، فالواجهـة الجنوبيـة لمنزل زينب خاتون ٩هـ /١٥م ، قد تـأثرت بحيـازة المـنزل المقـابل لهـا لأضـرار عديـدة فالمعمار لم يستطع البروز بروشن علـى هـذه الواجهـة إلا فـى الجـدار الشـرقى لارتـداد الواجهة ، متلافيا بذلك الإضرار بجاره ، وهذا الارتداد اضطر إليه المعمار للحفاظ على خط تنظيم الطريق ، فضلا عن قلة النوافذ بهذه الواجهة (صورة رقم ١٩) .

أما فى منزل الهراوى (١١٤٤هـ / ١٧٣١م٩ فقد حاز جاره الضرر بسبق بنائه، ولذا فقد منشئ المنزل ميزة فتح نوافذ على جاره فى الجدار الشمالى ، ممـا جعلـه يضـع الفناء فى هذا الضلع ويرتفع بجـداره الشـمالى ويفتـح عليـه العنـاصر الرئيسـية للمـنزل. (صورة رقم ٢٠) ، (شكل رقم ١٧) .

ومن مظاهر دور الفقه فى العماره السكنية حق التعلى فى الهواء أو البروز فى الهواء، ونرى ذلك فى منزل التوقاتلى برشيد (١٢هـ /١٨م) والذى برز فيه المعمار بروشنين فى الواجهتين الشرقية والغربية (شكل رقم ١٨) ولم تتبق لنا منازل أثرية بهاتين الواجهتين حتى نستطيع أن نجزم بأنه بذلك قد حاز الضرر سابقا جاريه ، ولكن على أية حال فإن هذا الفعل قد تم بالطابق الأخير من المنزل ، وهو مايعنى أن ضرر الجار ربما يكون قد تلافاه المعمار فى هذا الطابق (الصورتان ٢١،٢٢) ، ونرى مظهرا آخر للبروز فى الهواء دون الإضرار بالجار ، حينما برز معمار منزل رمضان بحمام المنزل فى الطابق الأخير منه إلى فناء منزل محارم ، ومن المعروف أن الحمامات لاتفتح بها نوافذ يمكن منها كشف الجار ، ولكن يتم تزويدها بأسقف جصيه ، يتخللها الزجاج الملون لإضاءة الحمام ، وبالتالى لايشكل بروز الحمام ضررا بالجار . (صورة رقم٢٣)

وكان للخصوصية أثر واضح على الواجهات نراه بوضوح فى تلك الفتحة المعقودة التى توجد أسفل كل سبيل ملحق بأى من منازل رشيد ، هذه الفتحة التى كان يطلق عليها فى رشيد "النازوره" ، كانت تستخدم وقت الفيضان فى ملء صهريج المنزل والسبيل بالمياه من قبل السقاء دون حاجة منه إلى الدخول للمنزل (صورة رقم٢٤) ، ومن المعروف أن كتب الحسبة شددت كثيرا على الآداب المتعلقة بالسقاء وعمله[١] .

ومن العناصر التى نرى تأثيرها على الواجهات : المشربيات ، والشبابيك ذات الخشب الخرط فنرى المعمار فى الطابق الأول بمنازل رشيد قد استخدم الخشب الخرط الصهريجى ، والأنواع الأخرى التى تتميز باتساعها ، بينما استخدم فى الأدوار العليا الخشب الخرط الميمونى وتشكيلاته المختلفة ، وكذلك المشربيات والرواشن التى تتميز بأنها أكثر ضيقا ، وبذلك لايستطيع الجار المواجه كشف من بهذه الطوابق ، وهى المخصصة للحريم ، بينما نجد فى الطابق الأول استخدام أنواع من الخشب الخرط الأوسع، وهو طابق الاستقبال الخاص بالرجال .

وهكذا نرى بوضوح أثر الخصوصية على واجهات منازل رشيد ولعل هذا يقدم لنا تفسيرا للتنوع فى مساحات وتغطيات نوافذ قاعه محب الدين (٧٥١هـ /١٣٥٠م) التى تطل على شارع بيت القاضى .

---

(١) انظر : ابن بسام المحتسب ، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، ص٣٣٢ ، ٣٣٣ .

المداخل

أثر الفقه الإسلامى كثيرا فى مداخل العمائر السكنية ، ويتضح ذلك من النوازل الفقهية الخاصة بهذه المداخل ، ولعل أوضح تأثير لأحكام البنيان على المداخل هو فى تنكيب[1] أبواب المداخل ونرى هذه الظاهرة فى منزلى : الكريدليه الذى يقع مدخله فى منتصف الضلع الجنوبى الغربى منه ، بينما يقع مدخل منزل آمنة بنت سالم المواجه له فى نهاية الضلع الشمالى من المنزل ، وبذلك لايواجه أى من المدخلين أحدهما ، ومن المعروف أنه يفصل بينهما ممر ضيق يفضى إلى مسجد بن طولون ، (شكل رقم١٩) ، بينما لم ينكب بابا منزلى محارم ، وأبوهم بشارع دهليز الملك برشيد لوقوعهما فى طريق عام واسع على العكس من منزلى الكريدليه وآمنة بنت سالم .

وفى رشيد حرص المعمار على وضع مدخل المنزل فى حالة وقوع المنزل على أكثر من شارع ، فى أكثر هذه الشوارع خصوصية ونرى ذلك فى منزلى البقراولى الذى وضع المعمار باب الصعود إليه فى الضلع الجنوبى ، وهو شارع أكثر خصوصية من الطريق العام الذى تطل الواجهة الشرقية وهى الواجهة الرئيسية للمنزل عليه . وتكرر نفس الوضع فى منزل عرب كرلى ، الذى يقع على امتداد نفس الشارع . (شكل رقم ٢٠) ، (شكل رقم ٢١) وتعددت المداخل فى العديد من منازل رشيد والقاهرة ، وهى ظاهرة انتشرت بصفة خاصة فى منازل رشيد لتعدد وظائف هذه المنازل ، إذ شاع بها إلحاق وكالات تجارية بالطوابق السفلى ، وكذلك أسبلة لرى ظمأ المارة ، فضلا عن مدخل المنزل والذى قد يتكون من بابين فى بعض الأحيان .

واختلفت أشكال هذه المداخل ، ومواقعها تبعا لوظيفتها ، فنرى فى منزل "رمضان" باب الوكالة كبيرا واسعا يتكون من درفتين من الخشب ، بينما باب المنزل يتكون من باب كبير بداخله خوخه[2] أما باب سبيل المنزل فهو صغير يؤدى الغرض منه .

---

(١) يعنى بالتنكيب عدم مواجهة أبواب المنازل بعضها البعض حتى لايكشف الخارج والداخل اليها. وقد نظمت أحكام الفقه الإسلامى عملية التنكيب وفى أى المواضع تتم من شوارع المدينة . وهى لازمة بصفة خاصة فى الشوارع الضيقة .

عبد الرحمن الأطرم ، الإعلان بأحكام البنيان ، ص١٧٩ . رسالة ماجستير ، بمعهد القضاء العالى، جامعة الإمام محمد بن مسعود بالرياض ، ١٤٠٣هـ .

(٢) خوخة : وتجمع على خوخ . المخترق بين شيئين وسواء بين دارين أو بين طريقين ، كما تطلق أيضا على كوة تدخل الضوء إلى البيت وتدل فى العمارة المملوكية على باب صغير فى

وهـذه الأبـواب تقـع فـى الواجهـة الشـمالية للمـنزل (صـورة رقـم٢٥) (شـكل رقم٢٠) ، وألحق بالمنزل باب يفضى إلى الطابق الأول علوى فى الواجهة الغربية .

وفى مـنزل علـوان برشـيد نـرى صـورة أخـرى مـن صـور تعـدد المداخـل ، إذ استقلت الوكالة بمدخل خاص ، بينما استقل المنزل بمدخل خـاص بـه، غـير أن مدخـل الوكاله يفضى على يساره إلى باب يؤدى إلى السلم الصاعد للمـنزل . وهـذه الظـاهره نراها أيضا فى منزل ثابت برشيد . بينما استقل مدخل منزل فرحات كليا عن مدخـل الوكالة محققا بذلك استقلالية كاملة عنها . وظاهرة تعـدد المداخـل هـذه تكـرس مبـدأ الخصوصية فى المنازل الإسلامية وهذه الخصوصية نراها فى منزل على الفطايرى برشيد وهـو مـؤرخ بسـنة ١٠٣٠هـ /١٦٢٠م وهـو مـن المنـازل المندثـرة حاليـا[١] . حيـث خصص المعمار بابا خاصا للإصطبل ، وآخر لقسـم الاسـتقبال وآخـر لطـابق الحريـم . وهذه الظاهرة نراها أيضا فى منزل التوقاتلى برشـيد الـذى يعـود للقـرن ١٢هـ /١٨م (صـورة رقـم٢٦) ونـرى فـى مـنزل محمـود محـرم (سـراى المسـافر خانـة) ١١٩٣ - ١٢٠٣هـ/١٧٧٩- ١٢٨٩م . مدخلا ثانويا يتصل بالفنـاء اتصـالا غـير مباشـر ،بينمـا يتصل رأسيا مع القاعات بالأدوار العليا ، فهذا البـاب خـاص بحركـة دخـول وخـروج الحريـم دون اسـتخدام المدخـل الرئيسـى للمـنزل . وكمـا سـبق وأن ذكرنـا إن تعـدد المداخل بالمنازل الهدف منه هو توفير الخصوصية لأقسـام المـنزل المختلفـة ، ولعـل هـذا يفسر لنا على سبيل المثال وجود بئرى سلم بمنزل الإسطنبولى، وهو ماذكرته الدكتورة نللى حنا فى دراستها عن منازل القاهرة ، دون أن تقدم سببا لوجـود بـئرى سـلم فـى منزل واحد[٢] ذلك أن بئرى السلم يساعدان علـى وجـود أكـثر مـن مكـان للصعـود لطوابق المنزل وهو مايوفر الخصوصية لأهل المنزل .

= الباب الكبير للمبنى للاستعمال اليومى دون حاجـة إلى فتـح البـاب الكبـير ، أو فتحـة فـى الجدار أو السور لتسهيل دخول وخروج الناس ويقال : "خوخة حجر" إذا كانت فى الحائط، وقد تكون الخوخة فى درفه باب ولاتتسع الا لمرور فرد واحد . وهو مايوفر عامل الخصوصية للمنزل .

انظر : محمد أمين وليلى إبراهيم ، المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ، ص٤٣ .

(١) انظر كراسات لجنة حفـظ الآثـار العربيـة ، الكراسـة رقـم ١٦ ، ١٨٩٩م ، ص٥٧ . تقريـر هرتس بك عن رشيد .

(٢) نللى حنا ، مرجع سابق ، ص١٥٣ .

ويعكس الجزء الذى يلى باب الدخول حرص المعمار المسلم على توفير الخصوصية للمنازل الإسلامية ، ففى مدينة القاهرة شاع استخدام المداخل المنكسرة(١)، ونرى هذا النوع من المداخل فى العديد من منازل القاهرة ومنها على سبيل المثال ، المدخل المنكسر فى منزل زينب خاتون قبل ٨٧٣هـ /١٤٦٨م ، والمدخل المنكسر فى منزل قايتباى ٨٩٠هـ /١٤٨٥م ، وبمنزل جمال الدين الذهبى ١٠٤٧هـ /١٦٣٧م ، وبمنزل الشبشيرى القرن ١١هـ /١٧م ، ومنزل محمود محرم ١١٩٣هـ /١٢٠٣هـ ، أما فى منازل رشيد فقد تعددت أشكال المداخل منها : أن يؤدى الباب إلى دركاه على يسارها باب معقود يؤدى إلى السلم الصاعد ، وبذلك لايستطيع المار بالشارع كشف أهل المنزل . وهذ النوع من المداخل نراه فى منازل رمضان ومحارم والأمصيلى على سبيل المثال ، وقد يؤدى الباب إلى مصطبه مربعة ، على يسارها السلم الصاعد ، وهذا النوع نراه فى منازل البقروالى ، وعرب كرلى ، وقد يؤدى الباب مباشرة إلى السلم الصاعد كما هو الحال فى منازل فرحات وعلوان والميزونى ، ويرجع تعدد أشكال المداخل فى منازل رشيد إلى مساحة المنزل وموقع المدخل ، ولكن فى جميع الأحوال

---

(١) من أقدم أمثلة المداخل المنكسرة فى المنازل ، فى منازل الفسطاط . ويتضح ذلك بالمنزل الثانى من حفريات على بهجت وهو يرجع إلى العصر الطولونى حيث نرى به استعمال المدخل المنكسر الذى يطلق عليه المؤرخون العرب القدماء اسم الباشورة ، ويبدأ المدخل المنكسر فى هذا البيت بالباب الذى يفتح على الطريق العام مباشرة ثم ينعطف الداخل إلى اليمين فى زاوية قائمة ويسير فى ممر قصير ، وينعطف عند نهايته مرة أخرى ليخرج من باب إلى يساره فى زاوية قائمة ثالثة ليخرج إلى الفناء الأول الصغير . ولهذا المثال أهمية قصوى إذ أنه يعد حتى الآن اقدم مثل قائم من نوعه ثابت التاريخ لافى مصر وحسب بل فى العالم الإسلامى بأسره و لم يعرف قبل ذلك المدخل المنكسر إلا فيما ورد فى كتاب الخطيب البغدادى المؤرخ المسلم عند وصفة مدينة بغداد التى بناها أبو جعفر المنصور قبل عصر بن طولون بنحو قرن وقد انتشر ستعمال هذا التخطيط لمداخل المنكسرة للبيوت والدور فى الفسطاط كما يتضح من الأمثلة التى كشفت عنها حفريات على بهجت وجابريل . واستمر استعمال هذا النوع من المداخل فى العصرين المملوكى والعثمانى .

انظر ، د. فريد شافعى ، العمارة العربية فى مصر الإسلامية ، عصر الولاة ، ص٤٣٣، ٤٣٥. المجلد الأول ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧٠م .

على بهجت وألبير جبريل ، حفائر الفسطاط ، ترجمة على بهجت الاشكال ٥، ٧، ١١، ١٤. القاهرة ١٩٢٨م .

د. محمد سيف النصر أبو الفتوح ، مرجع سابق ، ص٣ ٤ .

لايؤدى المدخل مباشرة إلى المنزل ، ولكن هناك عزل واضح بين داخل المنزل والخارج وهو مايوفر الخصوصية لأهل المنزل .

المناور السماوية

اختلفت مواضع ومساحات المناور السماوية بمنازل رشيد الأثرية فنرى منور منزل رمضان يقع فى الضلع الجنوبى للمنزل ، بينما يقع منور منازل مكى والقناديلى وثابت فى الضلع الشمالى . وهذا يرجع لسببين ؛ اختلاف مواقع هذه المنازل ، وكذلك إلى تحكم الجار المجاور فى تخطيط المنزل ، فقد يكون لحيازة الجار لضرر ما كفتح نافذة فى موقع ما ، أثر على اختيار المعمار لموقع منور المنزل ، ولاتعطينا الأمثلة الباقية لمنازل رشيد دلائل نستطيع أن نبرهن من خلالها على ذلك ، غير أنه من الواضح أثر مبدأ حيازة الضرر على موضع المنور ومساحته ، والذى قد يشغل مساحة كبيرة أحيانا ليصبح فناء سماويا ، كما هو الحال فى منزل التوقاتلى برشيد .

وفى منزل القناديلى اضطر المعمار إلى سد الحائط الشمالى ، وهو الحائط المطل على فناء منزل الجار وهو منزل طبق حتى لايكشفه ، بينما نرى فى منزل الأمصيلى المعمار قد فتح ملقف هواء فى أعلى نهاية السلم الصاعد للطابق الأول علوى ، حتى يوفر الهواء للمنزل ، حيث إن منزل حسيبه غزال الأسبق تاريخيا لم يتح لمعمار منزل الأمصيلى فتح نوافذ لإضاءة وتهوية السلم الصاعد .

عناصر الاتصال والحركة

تكشف عناصر الاتصال والحركة بمنازل رشيد والقاهرة ، عن تطبيق مبدأ الخصوصية داخل هذه المنازل ، وهذه العناصر تتمثل فى : السلالم ، والممرات التى تصل بين وحدات هذه المنازل ، فنرى فى منازل القاهرة ورشيد أن السلالم قد تنتهى عند الطابق الأول ، لتستمر من داخل هذا الطابق إلى باقى الطوابق محققة بذلك نوعا من الفصل بين هذا الطابق وباقى طوابق المنزل ، وقد تنتهى عند الطابق الثانى علوى لتستمر منه إلى باقى طوابق المنزل تأكيدا لنفس الفكرة .

وتستقل بعض وحدات المنازل بسلالم صاعدة إليها من الطابق الأرضى لتعبر أكثر عن خصوصيتها . سواء أكانت هذه الوحدات خاصة بالاستقبال ، أو بأقسام الحريم .

وكشفت الدراسة المسحية لمنازل القاهرة ورشيد عن ذلك بوضوح . وتعددت أمثلة ذلك . ففى منزل قايتباى ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م . كان لكل قسم سلمه الخاص ،

ففصل بذلك المعمار أماكن المعيشة ، عن أماكن استقبال الضيوف . فعلى سبيل المثال للمقعد سلم مستقل خاص به ، يصعد إليه من الفناء ، بينما استقلت أقسام الحريم بسلالم خاصة بها من الفناء أيضا ، فاصبح الفناء هنا هو عنصر الاتصال الرئيسى بين وحدات المنزل ، وفى منزل الغورى ٩٠٩هـ ١٥٠٤/٩١٠م . ينتهى سلم الزائرين بالوصول إلى الدور الأول ، وهو مخصص لاستقبال الضيوف ، بينما توزعت بقية السلالم التى تخدم أهل البيت فى أماكن أخرى بالدور ، لتربطه بالدور العلوى المخصص للمعيشة وغرف النوم مما يعمل على توفير الخصوصية .

وفى منزل السحيمى ١٠٥٨هـ ١٢١١هـ / ١٤٦٨ - ١٧٩٦م . لاتستمر كل السلالم للأدوار العليا فقد توقف بعضها عند الدور الأول أو الثانى . محققا المعمار بذلك فصلا واضحا بين وحدات المنزل المختلفة . وفى منزل الشبشيرى ق١١هـ/١٧م. نلاحظ تعدد عناصر الاتصال الرأسية ، وتغير مواقفها من طابق لآخر. فبينما يستمر السلم الموجود بالجانب الشمالى للأدوار العليا نجد أن السلم الصاعد من الجانب الجنوبى يتوقف عند الطابق الثانى ، ويتخذ اتجاها مغايرا للصعود إلى الطابق الثالث ، تحقيقا لمبدأ الفصل بين وحدات المنزل وهو مايوفر الخصوصية لأهله . وتتعددت عناصر الاتصال الرأسى وهى السلالم فى منزل محمود محرم ، وهى تتوزع فى أركان الفناء وهى لاتستمر جميعا للأدوار العليا . وفى هذا المنزل خصص لكل قاعة رئيسية سلم خاص ، ولعل ذلك منعا لاختلاط الرجال بالنساء .

وفى مدينة رشيد تضاءل إلى حد كبير دور الفناء كعنصر اتصال ، ولانستطيع أن نجزم بهذا جزما قاطعا نظرا لأنه قد تبقى لنا ٢٢ منزلا فقط من منازل رشيد ، غير أن هذه الظاهرة واضحة فيما تبقى من منازل . ونرى فى منزل التوقاتلى مدخلين : أحدهما يؤدى لطابق الاستقبال وهو ينتهى عنده ، والثانى يؤدى إلى الطابق الثانى علوى وينتهى عنده ليستمر الاتصال بعد ذلك بالطابق الثالث علوى بسلم من داخل الطابق الثانى علوى ، ويفصل بين سلمى الطابق الأول علوى باب يوفر الخصوصية لأهل هذا المنزل (صورة رقم ٢٦) . ولكون هذا المنزل قد استغل طابقه الأرضى وكالة تجارية فقد ربط المعمار بين هذه الوكالة ، وبين الطابق الأول علوى ، وهو طابق الاستقبال ، بسلم من فناء الوكالة، يعطى للضيوف من التجار حرية الحركة داخل المنزل . وتكررت نفس هذه الظاهرة أيضا فى منزل علوان حيث يربط بين وكالته التى تشغل الطابق الأرضى وبين طابق الاستقبال ، سلم من فناء الوكالة .

وباقى منازل رشيد يمتد السلم الصاعد من الطابق الأرضى إلى الطابق الثانى علوى حيث يفتح عليه باب من الطابق الأول علوى عند مصطبة مربعة الصغر هى

نهاية السلم عند هذا الطابق ، وهى التى تفصل بين السلم الصاعد إلى الطابق الأول علوى والثانى علوى حيث يليها باب يوفر الخصوصية لأهل المنزل . وينتهى هذا السلم عند الطابق الثانى علوى ليبدأ بعد ذلك مرة أخرى من داخل هذا الطابق إلى باقى طوابق المنزل ، وهو مايوفر عامل الخصوصية لأهل المنزل . ونرى ذلك فى رشيد فى منازل ثابت ، ورمضان ، وعلوان ، ومحارم ، والبقروالى ، والميزونى ، وأبوهم ، وذلك على سبيل المثال.

وانفرد منزل رمضان عن باقى منازل رشيد بوجود سلم يربط بين الطابق الأول علوى والطابق الثانى علوى من داخل باب سرى بدولاب خشبى بالحجرة الشمالية الغربية ، وهى الحجرة الرئيسية بالطابق الأول علوى ، ليصعد منه إلى الطابق الثانى علوى، وقد يكون الغرض من هذا السلم نقل الطعام إلى هذا الطابق من طابق الحريم، دون أن يدرك الضيوف من أين أتى الطعام ، وهو مايوفر حرية الحركة لأهل المنزل ، وكذلك توفير نوع من حرية الحركة النسبى لصاحب البيت .

وفى منزل البقروالى . نرى عنصرا عاما يوفر الخصوصية لأهل المنزل ، وهو دولاب مناولة من الخشب يقع خلف الباب الفاصل بين السلم الصاعد من الطابق الأول علوى إلى الطابق الثانى علوى فى الحائط الشمالى ، وهذا الدولاب عبارة عن رفين من الخشب يدوران على محور من عمود خشبى ، وهو ينقسم إلى قسمين : أحدهما يفتح على السلم ليوضع عليه الطعام ، والآخر يفتح على الدر قاعة الداخلية بالطابق الأول علوى ، لكى ينقل من على الرفين الطعام إلى الضيوف . (الصورتان ٢٨،٢٧) وهذه الحيلة الرائعة توفر الخصوصية لأهل المنزل ، ولاتعرضهم لضررالكشف.

وكان يوجد فى منزل جبرى المندثر برشيد دولاب مماثل[1] ونرى فى منزل جمال الدين الذهبى ١٠٤٧هـ /١٦٣٧م ، أن القاعة الرئيسية لم تفتح مباشرة على الصحن ، أو تتصل به مباشرة وإنما عبر ردهة صغيرة ، وذلك احتراما لخصوصية كل من الضيوف وأهل الدار. وفى منزل السحيمى ١٠٥٨هـ ١٢١١هـ /١٦٤٨ - ١٧٩٦م . بالرغم من انتظام كافة العناصر حول الصحن ، إلا أن القاعات لم تتصل به اتصالا مباشرا ، وإنما عبر دهليز، أو ردهه صغيرة ، حرصا على توفير الخصوصية لأهل الدار وضيوفهم ، مع مراعاة أن تظل القاعات على اتصال غير مباشر مع بعضها البعض

---

(١) ذكر لى هذا أسعد عثمان وهو ملاحظ آثار عمل مع لجنة حفظ الآثار العربية اثناء قيامها بمسح آثار المدينة .

داخليا وليس عن طريق الصحن بواسطة دهليز ، وزودت كل قاعة بمرافقها وملحقاتها لتوفير الاستقلالية لكل قاعة .

توزيع وحدات المنازل

كان لمبدأ الخصوصية أثر كبير على توزيع وحدات المنازل فى مدينتى القاهرة ورشيد، وذلك على طوابق المنزل ، فنرى الطابق الأرضى فى معظم منازل القاهرة قد تركزت فيه الوحدات الخدمية ، مثل قصر آلين آق الحسامى ٦٩٣هـ / ١٣٩٣م الذى وضع المعمار فى طابقه الأرضى الحواصل والإسطبل والطاحون ، (شكل رقم٢٢) وكذلك قصر الأمير يشبك الذى يشغل طابقه الأرضى الأسطبل وحواصل للغلال وطاحون وحجرات للخدم وبعض المتاجر التى تفتح على الخارج ، وكذلك قصر بشتاك ٧٣٥-٧٤٠هـ / ١٣٣٤-١٣٣٩م والذى يوجد بطابقه الأرضى حواصل وفرن وغرف للخدم (شكل رقم٢٣) ويوجد بالإضافة إلى الوحدات الخدمية بالطابق الأرضى ، وحدات الاستقبال الخاصة بضيوف صاحب المنزل ، والتى استقلت بعناصر اتصالها بالفناء سواء أكانت سلالم ، أو ممرات تؤدى اليها . ومن أمثلة ذلك قاعة الاستقبال (المنظرة) ، والمقعد بالطابق الأرضى بمنزل قايتباى بالخيامية ، والذى أنشأه السلطان سنة ٨٩٠هـ /١٤٨٥ م ، وقاعات الاستقبال فى منازل جمال الدين الذهبى، والهراوى ، والست وسيلة ، ومصطفى جعفر ، والمسافر خانه ، والسحيمى (شكل رقم ٢٤) وأحمد كتخدا الزراز ... الخ ، فى منازل العصر العثمانى ، والهدف من وضع هذه القاعات بالدور الأرضى هو تسهيل دخول وخروج الضيوف من المنزل ، دون الحاجة إلى الصعود للأدوار العليا ، وبالتالى كشف من بالمنزل ، وتوجد قاعات أيضا بالأدوار الأخرى بالمنازل . استخدمت لاستقبال الضيوف أيضا وغالبا ماكان المعمار يحرص على توفير عنصر اتصال خاص بها عن طريق الفناء ليجعلها أكثر استقلاليه عن باقى وحدات المنزل ، وإن كانت تتصل بهذه الوحدات عن طريق ممرات جانبية تغلق عليها عادة أبواب توفر لها الاستقلالية ؛ كما هو الحال فى القاعة العلوية فى منزل الهراوى ، وزينب خاتون ، ومحمود محرم (المسافر خانه) وعلى لبيب.

ومن الظواهر الملفته للنظر فى بعض منازل القاهرة وجود فنائين فى بعضهما ، والهدف من الفناء الثانى فى منازل القاهرة : هو أن يكون رئة ومتنفسا لأهل المنزل ، يتحركون فيه بحرية دون أن يجرحهم ضيوف صاحب البيت وغالبا ماكان مستقلا ، ويتصل اتصالا مباشرا بقسم الحريم بالمنزل ، وهذا يوفر نوعا من الخصوصية لهذه المنازل لايتوافر فى غيرها ، وربما ساعدت مساحات المنازل ذات الفنائين المعمار على وضع فناء ثان ضمن الكتلة البنائية ، ويوجد فى هذا الفناء فى بعض الأحيان أفران

لطهى الطعام ، ووحدات خدمية كالساقية والمطحنة ، أو حديقة إضافية للمنزل . ومن أمثلة المنازل التى يوجد بها فناءان : منزل جمال الدين الذهبى (شكل رقم ٤) ومنزل زينب خاتون ومنزل مصطفى جعفر ، ومنزل محمود محرم (سراى المسافرخانة) ومنزل على لبيب (شكل رقم٢٥) ومنزل إبراهيم كتخدا السنارى .

أما فى منازل رشيد فقد كان الطابق الأرضى غالبا ماتشغله عناصر خدمية أو تجارية، كالمخازن فى منازل : درع ، والمناديلى ، والقناديلى ، أو وكالات كما فى منازل : التوقاتلى ، وعلوان ، ورمضان ، أو حوانيت : كما فى منزل عصفور ، بالإضافة إلى أسبلة لسرى الظمآى من المارة كما فى منازل : رمضان ، وأبوهم ، ومحارم، والميزونى، ومكى. ومن الملاحظ أن النوافذ فى هذا الطابق تقع أسفل سقف الطابق كما فى منزل الأمصيلى الذى استغل جزء كبير من طابقه الأرضى للاستقبال ، نظرا لأن منشئه كان يعمل فى حامية المدينة . ومن المحتمل أن هذا الطراز من قاعات الاستقبال بالطابق الأرضى بمنازل رشيد قد تكرر فى المنازل التى اندثرت مثل منزل الشيخ حسن كريت الذى استغل جزء كبير منه للاستقبال[1] . والهدف من وضع النوافذ أسفل السقف مباشرة هو عدم تعريض من بالمنزل لضرر الكشف من المارة فى الشارع ، وهو ماحثت عليه الأحكام الفقهية[2] . ومن الملاحظ أن نوافذ المخازن ، وحواصل الوكالات الملحقة بمنازل رشيد ، فضلا عن وجود المستطيل منها أسفل سقف الطابق الأرضى مباشرة ، فإن بعضها ، والذى يقع فى أعلى منتصف واجهة الدور الأرضى من نوع النوافذ المزغلية ، الذى شاع استخدامه فى القلاع ، فهى ذات استطاله ضيقة جدا من الخارج ، وتتسع إلى الداخل . والهدف منها هنا هو تأمين المخازن والحواصل مع توفير الضوء والتهوية الكافيين لهما ، وهذا يدخل ضمن باب سد الذرائع فى الفقه الإسلامى .

---

(١) ذكر لى هذه المعلومة أسعد عثمان وهو ملاحظ آثار عمل مع لجنة حفظ الآثار العربية أثناء مسحها لآثار رشيد .

(٢) أثرت إحدى الحوادث التاريخية فى وضع الطابق الأرضى ، وهو حينما تعرض أحد منازل الفسطاط لضرر الكشف ، أمر عمر بن الخطاب واليه على مصر عمرو بن العاص أن يراعى فى بناء الدور والمساكن فى الفسطاط اذا زاد ارتفاعها عن طابقين أن ترفع فى الطابق الأرضى إلى القدر الذى لايسمح بأن يطل أحد من أهل الدار على جاره فيجرح حرمته ، حتى لو كان المطل واقفا على مقعد . د. فريد شافعى ، العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، ص٩ . جامعة الملك سعود ، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م .

واستغل الطابق الأول علوى فى معظم منازل رشيد للإستقبال ، وهـو كمـا سبق وأن بينا ينفصل عن باقى طوابق المنزل ، وقد تستدعى الحاجة فـى بعـض الأحيـان لاطـلاع النساء على مايجرى من أمور قد تتعلق بهن فى قسم الاستقبال الخـاص بـالضيوف مـن الرجال فصمم المعمار دواليب برشيد عرفت بدواليب الأغـانى[1]ويماثلهـا الأغـانى[2] فى المنازل المملوكية والعثمانية .

ومن أروع أمثلة دواليـب الأغـانى التـى مـازالت باقيـة إلى الآن بمدينـة رشـيد : دواليب الأغانى بالحجرة الشمالية الغربيـة ، والجنوبيـة الغربيـة ، بالطـابق الأول علـوى بمنزل الأمصيلى، ويلاحـظ فـى دولاب الأغـانى بـالحجرة الشـمالية الغربيـة أن المعمـار وضعه فى الضلع الشرقى من الحجرة ، بينما يقع باب الحجرة فى نهاية الحائط الجنوبى عند التقائه بالحائط الشرقى ليشكل باب الدولاب والدولاب زاوية قائمة أمـام الداخـل إلى الحجرة ، لاتسمح لمن فى الدور قاعـة التـى تتوسـط الطـابق بمشـاهدة مـن بداخـل الحجرة (صورة رقم ٢٩) وهو أمـر يذكرنـا بـالمداخل المنكسـرة ، وقـد تكـررت هـذه الظاهرة فى العديد من منازل رشيد وبصفة خاصة فى طوابق الحريم (صـورة رقـم٣٠) وهو أمر يذكرنا أيضا بما سبق ذكره من وجود ممرات تفصل بين قاعات الاستقبال فـى منازل القاهرة ، والأفنية ، وهذا كله يهدف منه المعمار توفير الخصوصيـة لأهـل المـنزل والضيوف وتلافى ضرر الكشف . ومن أمثلـة الأغـانى بمنـازل القـاهرة ، أغـانى قصـر بشتاك حيث يوجد بالقاعة الباقية بالقصر، سلم يصعد منه إلى المغانى وهى عبـارة عـن

---

(١) عبارة عن دواليب حائطية الجزء السفلى منها عبارة عن خزائـن مـن الخشـب يفصـل بينهمـا خورنقات ذات عقود متنوعة الأشكال ، والعلوى عبارة عن فراغ بين الخزنة السفلية وسـقف الحائط وكانت تحلى واجهته بزخارف من الخشب الخرط التى قد يعلوها فـى بعـض الأحيـان عقود منفذه من الخشب والغرض منها فى بعض منازل رشيد حجـب الجالسـات خلفهـا مـن النساء ، والبعض الآخر كان يستغل لخزن متعلقات الحجرة نفسها ويصعد إلى القسم العلـوى بدرج من داخل القسم السفلى .

(٢) أغـانى وجمعهـا أغانيـات ، والأغـانى جمـع أغنيـة مـن الغنـاء والطـرب ، وهـى فـى العمـارة المملوكية عبارة عن ممرات علوية ذات مقـاعد خلـف نـوع مـن المشـربيات الخشـب الخـرط تحجب الجالس خلفها ، وتكون متقابلة فى العـادة ، وتطـل علـى الـدور قاعـة أو الصحـن أو الأيوان الذى تعلوه ، وقد تطل على الشارع أو الحديقة أو فناء القصر أو على مسلخ الحمام . ويتوصل إلى الأغانى بسلم داخلى ، ولها باب يغلـق عليهـا عـادة ولبعضهـا بـاب سـرى وقـد تشتمل الأغانى على حجرات صغيرة ذات طاقات ومرحاض .
د. محمد أمين وليلى إبراهيم ، مرجع سابق ، ص١٥ .

ممرات مستطيلة مسقفة بسقف خشبى ذى براطيم ، فقدت كسوتها الزخرفية ، وهى تطل على الدور قاعة أعلى الايوانين الجانبيين بستة عقود ترتكز على خمسة أعمدة ، والعقود مغشاة بالخشب الخرط الذى يوجد به خوخة صغيرة ، تسمح للنساء بالإطلاع على مايجرى بالقاعة بحرية تامة . ومن أمثلة الأغانى فى منازل العصر العثمانى : الأغانى التى تطل على قاعة الاحتفالات بمنزل آمنة بنت سالم .

لقد كان المعمار فى مصر المملوكية ، والعثمانية ، حريصا على توفير الخصوصية فى المنازل الإسلامية بطرق شتى ، منها على سبيل المثال ، الفصل الرأسى بين مواقع الخدمات والمخازن ، وبين أجنحة المعيشة . وكذلك الفصل الأفقى بين أجنحة المعيشة الخاصة بأهل المنزل ، وبتلك الخاصة باقامة الضيوف كما أن لكل منهما سلمه الخاص كما سبق وأن ذكرنا ونجد ذلك مطبقا بصورة واضحة فى منزل قايتباى . ونجد فى بعض المنازل ان معظم القاعات زودت كل منها بمرافقها وملحقاتها لتوفير الاستقلالية لكل قاعة ، ونجد ذلك على سبيل المثال فى قاعات بيت السحيمى . وتعطينا منازل رشيد رؤية واضحة عن توزيع الوحدات الخدمية وعلاقتها بطوابق المنزل ففى معظم المنازل كان المطبخ من العناصر التى حرص المعمار على وضعها فى الطابق الثانى علوى، وهو الطابق الذى يتوسط عادة المنزل ويسهل إمداد طابق الاستقبال بالطعام وهو الطابق الأول علوى ، وكذلك باقى المنزل . ونجد عادة المطابخ فى الجزء الجنوبى من المنزل ، إن أمكن ، حتى يستطيع المعمار أن ينفذ من المطبخ مدخنه لتصريف الدخان أعلى المنزل ، حتى لايضر جاره المجاور بدخان منزله تطبيقا لقاعدة لاضرر ولاضرار ، التى أقرها فقهاء المسلمين ، حيث إن الرياح فى رشيد شماليه غربية ، وبالتالى لاتحمل الدخان إلى الجار وكلك تساعد المداخن العلويه على عدم الإضرار بالجار بتصريف الدخان فى فنائه أو منوره السماوى أو على أى جزء من المنزل قد يضر به ، ونرى فى رشيد مثلين باقيين للمداخن فى منزلى : الميزونى ، وجلال ، (صورة رقم٣١) ويوجد بقايا فتحة تصريف الدخان فى منزل رمضان ، فى الضلع الجنوبى من المنزل .

ومن الظواهر الملفتة للنظر أيضا فى رشيد ، وجود الحمام فى الطابق الثالث علوى ، وهو أكثر طوابق المنزل خصوصية فى منازل رشيد ، حيث يصعد إليه من داخل الطابق الثانى ، ومن المعروف أن الحمامات من الوحدات المعمارية ذات الخصوصية الشديدة ، ونرى ذلك فى منازل : رمضان ، وعرب كرلى ، والميزونى ، والتوقاتلى ، على سبيل المثال . ولكى لاتضطر النساء إلى النزول للطابق الأرضى فى المنزل للحصول على المياه من الصهريج ، نجد المعمار قد بنى قناة فى باطن الحائط

بمنازل : رمضان ، والميزونى ، وعرب كرلى (صورة رقم ٣٢) على سبيل المثال ، بالطوب تمتد إلى الطابق الثالث العلوى ، لتجلب النساء من خلالها المياه إلى الطوابق العليا من المنزل ، واعتنى المعمار بفتحة القناة العليا فجعلها على سبيل المثال فى منزل رمضان ، والميزونى ، داخل تجويف حائطى معقود. وبذلك نجد المعمار قد حرص على توفير الخصوصية وتلافى ضرر الكشف ، والإضرار بالجار ، عند توزيع الوحدات المعمارية المختلفة على طوابق المنزل . وحرص المعمار فى مساكن القاهرة ورشيد على عدم استقبال القبلة ، أو استدبارها عند قضاء الحاجة ، وهو ماشدد عليه فقهاء المسلمين[١] وبمسحنا منازل رشيد الأثرية وهى ٢٢ منزلا ، وجدنا أن جميعها قد طبق هذه القاعدة بلا استثناء ، وكان كرسى الراحه عبارة عن حجرة صغيرة جدا ذات مدخل منكسر وليس لها باب ، وتنتشر فى طوابق المنزل المتعددة ، وقد كان المعمار يوفر لها نافذه علوية للتهوية ، والإضاءة ، كما هو الحال فى كراسى الراحة بقصر بشتاك بالقاهرة ، ومنزل رمضان برشيد ، ومنزل المناديلى برشيد.... الخ .

وامتد دور الفقه فى العمائر السكنية إلى الأدوار العليا حيث أقيمت سواتر من الطوب يصل ارتفاعها أحيانا إلى ١,٧٥م لعزل سطحى منزلين متجاورين ، بهدف استغلال هذه الأسطح بحرية فى أى نشاط عائلى من قبل أصحاب المنزل ، وهو مايتلافى من خلاله ضرر الكشف ، ويوفر الخصوصية ، وقد تبقى لنا مثل من هذه الستائر الفاصلة وذلك فى الستارة الفاصلة بين سطحى منزلى جلال والميزونى ، وهما منزلان متجاوران برشيد .

ولكى لايضر الجار جاره فى حالة تصريف مياه الأمطار من على الأسطح ، قام المعمار بعمل مجرى لمياه الأمطار ينحدر إليه سقف المنزل فى تدرج ، هذا المجرى هو البديل عن الميازيب التى تضر بالجار ، ونرى هذا على سبيل المثال فى منزلى رمضان (صورة رقم٣٣) والمناديلى (صورة رقم ٣٤) برشيد .

العمارة الخدمية

قدمت العمارة الخدمية ، خدمات متعددة للمجتمعات الإسلامية : فبعضها منشآت ذات ريع كان يرصد للصرف على المنشآت الدينية ، مثل الحمامات[٢]،

---

(١) د. حسن الباشا ، المنهج الإسلامى فى العمارة الإسلامية ، ص١٩ ، د. عبد القادر كوشك، المنهج الإسلامى فى تصميم العمارة ، ص٤٧ ، مجلة المنهل ، عدد خاص ، المجلد ٥٦ ، جمادى الأولى والآخرة ١٤١٥هـ ، أكتوبر ، نوفمبر ١٩٩٥م .

(٢) حمام الحمة العين الحارة يستشفى بها ، وحممت الماء أى سخنته . والحميم هو الماء الحار ،

والبعض الآخر صدقة جارية ، احتسابا للأجر والثواب من الله العلى القدير ، وهو أمر حث عليه الدين الإسلامى ، ووضع له الفقهاء الأسس التى تتلاءم مع هذاالنوع من المنشآت . ومن أمثلة هذا النوع من المنشآت البيمارستانات[1] والأسبلة[2] .

الحمامات

الحمام كمؤسسة دخيل على الإسلام ، إذ أن العرب ، المسلمين الأوائل ، الخارجين من الصحراء ، لم يألفوا استعمال الماء الغزير ، لاقبل الإسلام ، ولا فى صدره ، ولكن تعاليم الدين الجديد ، وفرائض الغسل والوضوء ، جعلتهم يتبنون الحمام العام ، البيزنطى - الرومانى ، بل ويدخلونه الإسلام ، ويبوؤنه مكانة لم يحتلها من قبل، ويجعلون منه مرفقا عاما وشعبيا بالمعنى الصحيح . والمدن الرومانية ماعرفت قط ، حتى فى أوج ازدهارها ، ذلك العدد الهائل من الحمامات العامة ، والذى غصت به المدن الإسلامية ، لأن دورها هنا يختلف عنه هناك : هناك للأثرياء ، والرياضيين ، ونخبة المجتمع ، وهنا للناس كافة . هناك للتسلية ، والترفية والمتعة ، وهنا لأداء حاجة وللقيام بواجب . ارتياد الأول لم تكن النظافة غايته الأولى ، ولم يقم الثانى إلا للطهارة، وكل ماتمحور حوله فيما بعد من خدمات ، وعادات ، وحكايات ، وأساطير، وتقاليد لم يكن إلا نتيجة لارتباطه بكل طبقات المجتمع ، وكل أبناء الحى بشكل دائم وفى كثير من المناسبات .

واختلفت آراء فقهاء المسلمين حول حكم دخول النساء الحمامات ، فرأى بعضهم كراهة ذلك ، وذهب البعض إلى تحريمه ، بينما وضع بعض الفقهاء آدابا عامة

= واستحم إذا اغتسل بالماء الحميم ، فالاستحمام هو الاغتسال بالماء الحار والماء البارد. وكلمة "حمام" ترد مؤنثة سواء فى اللوحات التأسيسية أوفى نصوص الوثائق وتجمع على حمامات . الزبيدى ، محب الدين الفيض الحسنى الحنفى ، تاج العروس من جواهر القاموس، ج٢ ، ص٢٥٨ : ص٢٦٤ . القاهرة ١٣٠٦هـ /١٨٨٩م .

د. محمد أمين ، وليلى إبراهيم . مرجع سابق ، ص٣٧ .

(١) بيمارستان : لفظ فارسى مركب من بيمار أى مريض وستان بمعنى محل أو مكان ، وهى تعنى بذلك دار المرضى

أدى شير . الألفاظ الفارسية معربة ، ص٣٣ . المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين . بيروت سنة ١٩٠٨م .

(٢) سبيل : سبل الشئ أى جعله مباحاً فى سبيل الله ،والسبيل اصبح مصطلحا للوحدة المعمارية التى تعمل على توفير مياه الشرب للناس .

د. محمد أمين ، ليلى إبراهيم . مرجع سابق ، ص٦٢ .

يجب مراعتها عند دخول الحمام من قبل الرجال والنساء . وهو أمر كان مقبولا من المسلمين ، وقد حرص المحتسب على متابعة هذه الآداب ومدى التزام المترددين على الحمام بها[1] .

وحرصا على الخصوصية فقد كان الحمام الخاص بالنساء يقوم على العمل فيه نساء تقوم بالإشراف عليهن مشرفة أو معلمة ، تكون مسئولة عن سير نظام العمل والمحافظة على الآداب والأخلاق بداخل الحمام . وهى تفصل فى المنازعات التى تحدث دائما فى حمام النساء[2] . والحمام كمنشأة خضع للقواعد العامة لأحكام البنيان فى الفقه الإسلامى من حيث علاقته بالمنشآت المحيطة به ، غير أن قلة عدد نوافذه جعل هذه العلاقة تنحصر نسبيا فى موقع المدخل بالنسبة للمنشآت المقابلة وهومايعرف بالتنكيب ، غير أنه بحصر ماتبقى من حمامات بالقاهرة ، وكذلك حمام عزوز ، وهو الحمام الوحيد المتبقى برشيد ، لم نستطع الوقوف على مدى تطبيق هذه القاعدة ، لسببين : الأول هو وقوع معظم هذه الحمامات فى شوارع عامة ، لايشترط فى المنشآت الواقعة فيها تنكيب أبوابها ، والسبب الثانى : أن باقى الحمامات لايواجهها منشآت أخرى أثرية نستطيع من خلالها أن نرى مدى تطبيق هذه القاعدة .

ومداخل حمامات القاهرة لاتؤدى مباشرة إلى الداخل ، بل يتم الدخول إليها عبر دهليز منكسر لايسمح بأن يرى المارة بالشارع من بداخل المنشاة ، وهو مايوفر الخصوصية لمن بداخلها ، ومن أمثلة ذلك : دهاليز المدخل فى حمامات السلطان اينال، وحمام الملاطيلى ، وحمام الطمبلى وهذه الحمامات تعود إلى العصر المملوكى الجركسى، وفى رشيد استخدم دهليز منكسر أيضا فى مدخل حمام عزوز (ق١١هـ/١٧م) وهو الحمام الوحيد المتبقى فى المدينة .

وجاء تخصيص حمامات ، أو أوقات معينة فى الحمامات للنساء ، ليعبر عن مبدأ الخصوصية فى العمارة الإسلامية ، وهو أمر لفت انتباه الرحالة الانجليزى إدوارد وليم لين.

---

(١) ابن مفلح ، شمس الدين أبو عبد الله المقدس الحنبلى ، الآداب الشرعية والمنح المرعية ، ج٣، ص٣٢١،٣٢٢،٣٢٣ . مكتبة ابن تيمية ١٩٨٧ م .
ابن الحاج ، المدخل ، ج٢ ، ص٤٧ : ٤٩ .

(٢) سعاد حسين ، الحمامات فى مصر الإسلامية ، ص٢٧، رسالة دكتوراة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣ م.

فالحمامات المشتركة تخصص فيها فترة ماقبل الظهر للرجال وفترة مابعده للنساء. وعندما يكون الحمام مقتصرا على استقبال النساء ، يعلق منديل أو قطعة قماش من الكتان عند مدخله فلا يطأ الرجال عتبته قط ، ويكون الخدم قد غادروا الحمام قبل فترة بسيطة وحلت الخادمات محلهن[1] . ومن أمثلة هذا النوع من الحمامات المتبقية بمدينة القاهرة ، حمام الشرايبى[2] وقد خصصت بعض الحمامات لأحد الجنسين فقط، مثل حمام الطنبلى ، وهو يعود للعصرالعثمانى ، وهو حمام كبير خاص بالرجال ، وحمام مرزوق الذى يعود لنفس العصر، وهو من إنشاء حسن أغا نجاتى[3] وتدخله النساء فقط . وقد يبنى حمامان متجاوران أحدهما للنساء ، والآخر للرجال لمنشئ واحد ، ومن أمثلة هذا النوع من الحمامات ، حمام بشتاك ق٧هـ،٨هـ/ ق١٣م،١٤م وحمام السلطان اينال ٨٦١هـ /١٤٥٦م ، وقد اندثر حمام النساء منذ فترة طويلة وحمام الملاطيلى ق٩ هـ /١٥م[4] ونرى فى حمام السكرية ، وهو من الحمامات المزدوجة مظهرا للخصوصية دل عليه اختيار المعمار لمدخل حمام الرجال فى الشارع الرئيسى ، وهو قصبة القاهرة ، وهو من الشوارع العامة كثيرة الازدحام ، بينما اختار مدخل حمام النساء ليطل على شارع عام خاص متفرع من القصبة العظمى.

وقد تساعد إمكانيات بعض أفراد المجتمع على إلحاق حمامات بمنازلهم ، وهذه الظاهرة تهدف إلى عدم خروج النساء من المنزل إلى الحمامات وهو أمر كرهه فقهاء كثيرون ، كما سبق وأن ذكرنا ، فضلا عن استخدام أهل المنزل له فى أى وقت يشاؤونه، ومن أمثلة المنازل التى ألحق بها حمامات : منزل زينب خاتون ١١٢٥هـ / ١٧٧٩م ، ومنزل أحمد كتخدا الرزاز ١١٩٢هـ /١٧٧٨م ، والمسافر خانة ١١٩٣هـ/١٢٠٣م ، وكذلك الحق بمنازل رشيد حمامات كانت غالبا ما تشغل الطابق الأخير بالمنزل ؛ ذلك لأن الحمام يعتبر من أكثر أجزاء المنزل خصوصية ، وهو أمر اشتركت فيه منازل القاهرة كذلك ، حيث نرى حمام منزل جمال الدين الذهبى فى

---

(١) إدوارد وليم لين ، عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم ، ص٣٤٧ ، ترجمة سهير دسوم ، ، ١٩٩١م.

الطابق الثانى من المنزل ، بجوار قاعات الحريم، وكذلك حمام منزل السحيمى .

ومن أمثلة منازل رشيد التى ألحق بها حمامات، منازل رمضان والمناديلى والتوقاتلى، وعرب كرلى ، والميزونى .

البيمارستانات

تعتبر البيمارستانات من الصدقات الجارية التى يمتد ثوابها إلى ما بعد وفاة منشئها ، ولذا حرص السلاطين والأمراء على إنشائها ، ومن البيمارستانات التى اتسعت شهرتها لخدماتها الجليلة التى قدمتها للمرضى . البيمارستان القلاوونى فقد روعى عند إنشاء هذا البيمارستان تشييد أقسام خاصة للرجال ، وأخرى للنساء تأكيدا لمبدأ الخصوصية ، وجعل من البيمارستان منشأة متكاملة ، فنرى المقريزى يقدم لنا فى خططه صورة متكاملة لهذه المنشأة الحضارية فيذكر أن السلطان قلاوون "أفرد لكل طائفة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى ، وقاعة للجرحى ، وقاعة لمن به إسهال وقاعة للنساء ، ومكانا للمبرودين ؛ ينقسم قسمين قسم للرجال ، وقسم للنساء ، وجعل الماء فى جميع هذه الأماكن ، وأفرد مكانا لطبخ الطعام ، والأدوية ، والشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال ونحوها ، ومواضع يخزن فيها الحواصل ، وجعل مكانا يفرق فيه الأشربة والأدوية ، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء ، لإلقاء درس الطب ... جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير ولاحدد مدة لإقامة المريض به ... إلخ مما فصلته وثائق السلطان قلاوون[1] .

الأسبلة

الماء عصب الحياة ، وعامل لنشوء الحضارات فى حالة توفره كما إنه عامل من عوامل انتهائها فى حالة ندرته ، فعندما لايتوفر فى مدينة ما الماء الكافى للرى والإرواء فإنها لاتلبث أن تضمحل ، وتنتهى . لذا حرص المسلمون على توفير المياه فى الطريق لعابرى السبيل ، وذلك عن طريق السقايات العمومية أو الأسبلة - واعتبر الفقهاء عمارة الأسبلة من الصدقات الجارية التى يثاب عليها المؤمن حتى بعد وفاته .

والاهتمام بالمنشآت المائيه بدأ منذ عصر مبكر ، فقد شيد الوزير جعفر بن الفرات عام ٣٥٥هـ / ٩٦٥م على سبيل المثال السبع سقايات ، لتزويد سكان الفسطاط ، وخاصه منطقة الحمروات بالماء اللازم لهم ، وذلك عندما انحسر ماء النيل

---

(١) د. محمد سيف النصر أبو الفتوح ، مرجع سابق ، من ص١٤٤ :ص١٥٤ .

عن تلك المنطقة حتى أدى الأمر بالناس إلى أن يسيروا هم ودوابهم مسافات طويلة ، وشاقة كى يستقوا من بحر الجيزة ، فيما بين الروضة وبين الجيزة[1]. وقد جعل لها بئرا يؤخذ منها الماء إلى السبع سقايات ، أنشأها وحبسها لجميع المسلمين الذين كانوا بخط الحمراء ، وكتب عليها "بسم الله الرحمن الرحيم ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، وله الشكر وله الحمد ، ومنه المن، على عبده جعفر بن الفضل بن الفرات وماوقفه له من البناء لهذه البئر وجريانها إلى السبع سقايات التى أنشأها وحبسها لجميع المسلمين وحبسه وسبله وقفا مؤبدا لايحل تغييره ولا العدول بشئ من مائه ولاينقل ولايبطل ولايساق إلا إلى حيث مجراه إلى السقايات المسبلة ، فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه ... إن الله سميع عليم وذلك فى سنة خمس وخمسين وثلثمائه - وصلى الله على نبيه وآله وسلم"[2].

هكذا حرص المسلمون على توفير المياه ، وبرزت فى هذا المجال الأسبلة ، والسبيل كمنشأة معمارية بالشكل الذى اتبع حتى القرن التاسع الميلادى ، ظهر على الأرجح فى العصر المملوكى ، ومهما اختلفت طرز الأسبلة وأشكالها ، فإن تكوينها المعمارى كان واحدا ، وهو تكوين يخدم وظيفته[3] ، ويتكون السبيل من ثلاثة طوابق: الأول فى تخوم الأرض ، وهو الصهريج الذى يملأ بالماء ، والطابق الثانى أرضه أعلى من مستوى الشارع بقليل . ويمثل حجرة السبيل ، أو "حانوت السبيل" ولهذه الحجرة شبابيك للتسبيل ، وبداخلها أحواض تحت الشبابيك تملأ بالماء العذب من الصهريج ، أما الطابق الثالث أى العلوى فهو غالبا قاعة لتعليم الأيتام ، أى كتاب ، وأحيانا كان يخصص للمزملاتى وهو الشخص المسئول عن تسبيل الماء للماره ، وتبنى الأسبلة مفردة ، كسبيل السلطان قايتباى بالصليبة، وسبيل خسرو بيك بالنحاسين ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا بالنحاسين ، أو ملحقه بالمساجد والمدارس ، وهو أمر شاع فى معظم العمائر الدينية فى القاهرة خلال العصرين المملوكى والعثمانى ، ومن

---

(١) المقريزى ، مصدر سابق ، ج١ ، ص٣٤٤ .

(٢) محمود الحسينى ، التطور العمرانى لعواصم مصر الإسلامية ، ص٣٣٧ رسالة دكتوراة بمكتبة كلية الآثار بجامعة القاهرة ، ١٩٨٧م .

(٣) انظر على سبيل المثال :

د. حسنى نويصر ، مجموعة سبل السلطان قايتباى بالقاهرة ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٠ م .

د. محمود حامد الحسينى ، الأسبلة العثمانية بمدينة القاهرة ، مكتبة مدبولى . ١٩٨٨م .

د. محمد سيف النصر أبو الفتوح ، مرجع سابق ، من ص ٤٣٠: ص٤٦١ .

أمثلة ذلك : الأسبلة الملحقه بمدرسة أيتمش البجاسى بباب الوزير ، وخانقاة الناصر فرج بن برقوق ، ومدرسة قانى باى الرماح بميدان القلعة... إلخ . أو ملحقة بالمنازل ، كما حرص أهل الخير من أبناء رشيد على إلحاقها بمنازلهم فى العصر العثمانى ، كما فى منازل : رمضان ، وابوهم ، ومحارم ، والبقراولى ، والميزونى ، ومكى، وعصفور ، والتوقاتلى .

وقد حرص منشئو الأسبلة على تنظيم تزويد الأسبلة بالمياه ، حيث نصت وثائق أوقاف الأسبلة التى تنظم العمل بها على ذلك. وكانت الصهاريج عاده تزود بالماء مرة كل عام . زمن زيادة ماء النيل .

وقد قام القاضى الحنفى بمحكمة الصالح بتحديد كميات المياه التى ستمد بها بعض صهاريج المساجد ، والجوامع ، والزوايا ، بالقاهرة ، وعين الأمير مصطفى بن الأمير يوسف جاويش لمتابعة هذا الأمر ، مع المقدم ناصف سقا باشى ، ومقدم السقاين محمد بن الطيار ، حيث تم رصد مبلغ ثمانية آلاف نصف فضة لحمل ١٦ ألف راوية من البحر العذب أى النيل إلى صهاريج متفرقة بالقاهرة ، وتم الاتفاق مع عدد السقائين لحمل هذا الماء ووزعت الكمية بينهم وحددت الأماكن التى سيزودونها بالماء، ومقدار ماسيصبونه فى كل صهريج . وهذه الحادثة المسجلة فى سجلات المحكمة الشرعية بالقاهرة[١] ، تدل على أن القضاة فى العصر العثمانى قد اتسع نطاق عملهم ، ليشمل أعمالا كانت تقع داخل نطاق عمل المحتسب[٢] ، وتدل على الحرص على توفير المياه لمختلف مناطق القاهرة، وهو أمر يؤكده توزيع الأسبلة التى أقامها أهل الخير على أحياء القاهرة ، ففى الجزء الجنوبى من القاهرة الممتد من باب زويلة وحتى طولون ، والذى يشغل ٢٦٦هكتاراً تشكل ٤٠,٣٪ من مساحة القاهرة ، كان يوجد به ٩٥ سبيلاً بنسبة ٤٢٪ من إجمالى عدد الأسبلة بمدينة القاهرة البالغ عددها ٢٢٦ سبيلا[٣] .

---

(١) سجلات محكمة الصالح ، سجل ٣٢٣ ، ماده ٩٣٣ ، ص٢٨٠ .

(٢) نللى حنا ، مرجع سابق ، ص٢٨ ، ٢٩ .

(٣) جمال عبد الرؤوف ، مرجع سابق ، ص٢ .